كتاب الشباب

زياد ولصوص البحر



قصة

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

زياد ولصوص البحر

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

زياد ولصوص البحر – الرياض

٦١ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٦–٢–٠٠٢–٤٠–٩٩٦٠

١– القصص القصيرة العربية – المغرب أ– العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٦٤ ٢٢/٢٨٠٩

رقم الإيداع: ٢٢/٢٨٠٩ ردمك: ٦–٢–٠٠٢–٤٠–٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض – العليا – طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



1

استيقظَ (زيادٌ) من نومِه على قرصةٍ خفيفة على خدِّه.

وفتحَ عينَيه فرأى أباهُ الدكتورَ (حمدي ماء العينين) جالسًا على حافة سريره يُداعبُهُ ليوقظَهُ من نومِهِ كعادتِه كلَّ صباحٍ.

ودخلت (أُمُّ البنين) أختُ (زيادٍ)، ففتحتْ نافذَةَ غرفتهِ المُطلَّةِ على خليجِ (الداخلة)، فتدفَّقتْ منها موجةٌ من النُّورِ الباهرِ ونسمةٌ من هواءِ الصَّباح الناعش مُشْبَعَةٌ بُرطوبةِ البحرِ، وروائحِ الطحالب.

وأحسَّ (زِيَادٌ) من لمعَانِ عينَي أبيه، وابتسامةِ أُختِهِ أنَّ هناكَ شيئًا غيرَ اعتياديٌّ هذا الصَّباح.

ومدَّ له أبوهُ يدَهُ ليساعدَهُ على الجُلوسِ فلمْ يُمسِكْها، وفضّلَ الاعتمادَ على نفسِه في القُعُودِ. فقد كانَ مُقعَداً منذُ أُصيبَ بشلَلِ الأطفالِ وهو طفلٌ صغير.

وكان يَعرفُ أنَّ اعتمادَهُ على نفسِه يُسْعِدُ أباهُ، فكانَ

يُحاوِلُ القيامَ بجميعِ أعمالِه بنفسِه بمُساعَدةِ كُرسيِّه المتحرك.

وحيًّا أباه:

– صباحُ الخيرِ، يا أبي.

– صباحُ الخيرِ، يا زياد.

وحيًّا أُختَهُ فردتِ التَّحيةَ. ونهضَ أبوهُ، وقرَّبَ الكُرْسِيَّ المُتحرِّكَ من جانبِ الفراشِ، فتحرَّكَ (زيادٌ) نَحوَهُ على يديهِ وذراعيهِ القويتَين، وجلسَ فيه بمهارةٍ وبدون صعوبةٍ، وأخذَ يُديرُ العجلتين بيَدَيْه خارجًا من الغرفةِ.

وفي ساحةِ الدَّارِ رأى صُندوقاً كبيراً مُستطيلاً مغلَّفاً بورقٍ ملون لمّاع، ومربوطًا بشريطٍ حريريٍّ عريضٍ ينتهي بعُقدةٍ تُشبِهُ زهرةً كبيرةً. فاتَّسعتْ عيناهُ، وانفتحَ فمُهُ وسأله:

– ما هذا؟

فصاحتْ أمُّ البنينَ بحماسٍ:

– عيدُ ميلادٍ سعيدٍ، يا (زياد)!

وانحنَى أبوهُ فقبَّلهُ قائلاً:

– عيدُ ميلادٍ سعيدٍ!

وعانق (زياد) والدَهُ سعيداً :

– شكراً، شكْراً، يا أبي.

فصاحت أُختُهُ:

– افتحهُ! افتحهُ! هل أُساعِدُكَ؟

فاعترضَ أبوها :

– لا، يا أم البنين. دعيـهِ يفتَحُ هديَّتَه بنفسِـه. إنَّهُ عيـدُ ميلادِهِ هو.

وتقدَّمَ (زياد) نحوَ الصُّندوقِ ففتحَهُ بيدٍ مرتعشةٍ دونَ أن يُمزِّقَ الورقَ أو يقطَعَ الشَّريطَ، فإذا بداخِلِه مَرْكَبةٌ تخطِفُ الأبصارَ بلمَعَانِها.

وتعاونَ الدكتور حمدي وابنتُه على إخراجِ المركبةِ من الصُّندوقِ ووضعَاها على الأرضِ أمامَهُ. فصاحَ فَرِحًا :

– الغطَّاسة!

كان يعرِفُ كلَّ شَيءٍ عَنْهَا. رأى صورَتَها في إحدَى المجلاَّتِ الأجنبيةِ وقرأَ منافعَها بالنّسبةِ للرِّياضيينَ، وصيَّادي الأعْماقِ، وعُلماءِ (بيولوجيةِ) البحرِ، وعلماءِ الآثارِ وغيرهم، بل وتعلَّمَ في خيالِهِ كيفَ يستَعْمِلُها.

كانت عبارةً عن مركبةٍ من الصُّلب اللأّمع، والبلاستيك وأليافِ الزُّجاجِ الشفَّافِ. ولها محرِّكٌ يعْمَلُ بالبطّاريَّةِ أو باليدِ في حالةِ فَراغِ البَطّاريَةِ، تُركَّبُ على ظهرِ السبّاحِ، وبها تجْويفٌ لخزنِ أوكسجين التَّنفُسِ، ولهـا يَدانِ يُمسكُ بهـمـا الغـوَّاصُ ليقودَها تحتَ الماءِ بسهولةٍ، ونحوَ أيٍّ اتجاه أرادَ.

وأخذتِ المركبةُ الجذَّابَةُ بمجامعِ قلبِ (زيادٍ)، فالتفتَ نَحوَ أبيهِ وأمسَكَ بيدِهِ وقَبَّلَها شاكراً مرَّةً أخرى، فاغرورقتْ عينَا الوالدِ بالدُّموعِ. ووقفتْ أمُّ البنينِ، هي الأخرى، تبتسمُ سعيدةً بسعادةِ أخيها، وتمسحُ عينَيها بمنديلِها الصَّغيرِ.

وأخيراً لم تستطعْ كبحَ فُضُولِها فقالت لأبيها:

– لماذا لا ننزلُ إلى الماء الآنَ ونُجَرِّبُهـا؟ تعـالَ يا أبي، أرجوك...

فنظَر الأبُ إلى (زيادٍ)، وقال:

– ألا تنتظرُ حتى نُفطِرَ؟

فقال (زيادُ):

– إنَّنا دائماً نسبَحُ في الصبَّاحِ قبلَ الفُطورِ، والمعدَةُ خاليةٌ.

فانحنى الأبُ ورفعَ المركبةَ الخفيفةَ تحتَ ذراعِهِ، وقالَ وهو لا يُخفي حماسَهُ وشوقَهُ لتجرِبَتِهَا:

ـ تعالَ، إذًا...

ونزلَ الدكتورُ حمدي وأمُّ البنين الدُّرُجَ العريضَةَ إلى الشاطئ، ونزَلَ (زيادُ) بكُرسيِّهِ فوقَ المُنحدَرِ الموازي للدُّرُجِ، وهو يُمسِكُ بالقَضيبَيْن الحديديين اللَّذين ركَّبهُما أبوهُ خصِّيصًا لاستعمالِهِ.

ودخَلَ الجميعُ غرفةً حجَرِيَّةً على الشَّاطئِ لتغييرِ ملابسِهم، والاستعدادِ لدخولِ الماءِ.

2

كـان الدكـتـورُ حـمـدي مـاءُ العـينين رجُـلاً في الأربعينَ، طويلاً ونحيـفًـا، لَوَّحَتْ جـسَـدهُ الصـحـراويَّ المفـتـولَ شـمسُ الشَّاطئِ، ومِلْحُ البحرِ، ورياحُ الفصول.

كان حاصلاً على الدكتوراه من إحدَى الجامعاتِ الأوروبيةِ في البيولوجيةِ البحريةِ. وكان اختصاصُه الحيتانُ الضَّخمةُ والعنابرُ[1] والدلافينُ وجميعُ الحيتان المرضعة.

وكان يُحِبُّ عمَلُه حبًّا شديداً لدرجةِ أنَّهُ قَبِلَ تَعْيينَهُ في هذه المنطقةِ المُوحشَةِ المعزولةِ عن العُمرانِ، على حدودِ المغربِ الجنوبيةِ مع موريتانيا، على شاطئ خليجِ «الداخْلة» حيثُ يمكِنُهُ مراقبةُ العنابرِ التي تأتي إليه لِتَلِدَ وتُرضِعَ صغارَها حتى تقوَى على الرَّحيلِ.

---

(1) العنبر: هو نوع من الحيتان، تتكون في أمعائه مادة «العنبر» وهي تطفو على الماء حين يفرزها الحوت في أماكن وجوده، ومن هذه الأماكن الخليج العربي. ومادة العنبر هذه مادة أساسية في صناعة العطور، وحوت العنبر من الثدييات، وأنثاه تلد وترضع صغارها.

وكانَ من أنصارِ الحِفاظِ على البَيْئةِ والحَيَوانات البريَّة والبحريةِ، وحمايتِها من الانقراضِ الذي تتعرَّضُ لهُ على يدِ الجاهلينَ والأنانيينَ من بني الإنسانِ.

ولم يكنْ يُعادلُ حبَّهُ لعمَلِه إلا حُبُّهُ لابْنِهِ (زيادٍ)، وابنَتِه أُمِّ البنين، خصوصاً بعدَ وفاةِ والدَتِهِمَا.

وكانتْ أمُّ البنين في الخامسةَ عشرةَ، و(زيادٌ) في الثالثَةَ عشرَةَ. فكانَ أبوهما يقضي وقتَهُ بين تعليمهما وَفْقَ المُقرَّراتِ الرسميةِ في المدارسِ العامَّة ومُراقبةِ الحيتانِ وتَرْقيمِهَا وقياسِ طولِها وتقديرِ أوزانِها وأعمارِها، وكذلك صغارِها.

وأَلِفَتْهُ الحيتانُ وهو يسبحُ بينَها بملابسِ غَوْصِه، وخَلْفَهُ أمُّ البنين، فلم تعدْ تنفُرُ منهما. وكانَ هو يقترِبُ منها، ويلْمَسُها ويضربُها بلُطْفٍ على جلْدِها النَّاعمِ فلا تخافُهُ ولا تبتعدُ عنه.

وكانَ (زيادٌ) يجلسُ في مركبٍ شفّافِ القَعْرِ، ينظُرُ إليهما وهما يسبَحَانِ تحتهُ بينَ العنابرِ الضَّخمة، ويتبعُهُما أينما ذهبا مُجدِّفًا بهُدوءٍ ومهارةٍ.

وكان الثلاثةُ يعيشونَ في مُنتهى السَّعَادَةِ والهَناءِ.

وخرجَ الثَّلاثَةُ من الغرفةِ الشاطئيَّة في ملابسِ السبَّاحةِ، وجرَتْ أمُّ البنين نحوَ الماءِ البلُّوريِّ الصَّافي فارتمتْ فيه برشاقةِ الدلافين.

وتبِعَها (زيادٌ) على كُرسيِّه فوقَ الممرِّ الخاصِّ به حتَّى دَخَلَتِ الماءَ. وبسُهُولة الفَقْمَةِ المدَرَّبةِ انْزلقَ إلى الماءِ، ودفعَ بالمقعَدِ نحوَ اليابسَة، وقعدَ ينتظرُ أباه.

وجاءَ الدكتورُ حمدي يحملُ الغطاسةَ الجديدةَ تحتَ ذرَاعِهِ. وقد تقلَّد جهازَ غطسِهِ هو الآخرُ، فحمل على ظهرِهِ أنبوبَ الأوكسجين، وحولَ عُنقِه قناعَ التَّنفُّسِ.

وأسرعتْ نَحوَهُ أمُّ البَنين، وهي تَلمعُ كسمَكةٍ سَمْراء وتلهَثُ، وقالتْ مُستَعطفَةً (زياداً): دعْني أُجربْها، يا(زيادُ)!

ولكنَّ الدكتورَ حمدي كانَ قد بدأ يضعُ الغطَّاسةَ على ظهرِ (زيادٍ) فأجابها:

– إنَّهُ عيدُ ميلادِهِ هو، وعليه أنْ يقومَ بأوَّلِ تَجربَةٍ.

ثمَّ نظرَ إليها وقَال: وأينَ جهازُ غَطْسِكِ؟

وَفَتَحتْ فَمَهَا مُتذكِّرَةً، وقَفَزَتْ كَغزالٍ صحراويٍّ نحوَ

الغُرفـةِ. ولـم تلبثْ أن عـادتْ تَحـمِلُ خَـزّانَ أوكسـجين في حَجمِها ملوَّنٍ بجميعِ ألوانِ القواقعِ والطَّحالب.

وكانَ الدُّكتورُ حمدي قَد أعطَى (زياداً) مَعلوماتٍ عن كيـفيـةِ استـعـمـالِ الغطَّاسـةَ. ووَضعَ الجـميعُ أقنعَـتَـهُـمْ على وجوهِهم، وغَطَسوا.

ولم تمضِ ساعةٌ على تدريبِه حتَّى كانَ (زيادٌ) قد سَيطَرَ على المَركَبَةِ الجديدةِ العجيبَةِ وأخَذَ يسبحُ بها تحتَ الماءِ بمهارةٍ كَبيرةٍ.

وزادتْ جرأتُهُ حينَ كَسَبَ الثِّقَةَ بنَفسِه، فسألَ أباه:

– أبي، هلْ أستطيعُ أن أعبُرَ الخليجَ بالغطَّاسة؟

وتردَّدَ الدكتورُ حمدي، فَرَجَاهُ (زياد):

– أرجـوكَ، يا أبي! أنا الآنَ أعـرِفُ كـيفَ أُديرُها سـواءً بالبطاريَّةِ أو باليَدِ. ماذا تقولُ؟

ولـمْ يُجِـبْـهُ والدُهُ. كـان ينظرُ إلى سطحِ مـاءِ الخليجِ الذي كانَ هادئًا كَبِرْكةِ زيتٍ، وقدْ بدأَ يتجعَّدُ في قسمٍ من المِنْطَقَةِ الوُسْطَى ويتماوَجُ.

وبدا القلقُ على وجهِ الدكتور حمدي. ونَظَرَ إليه (زيادُ) وأمُ البنينَ، ثم إلى حيثُ كان ينظر. قالتْ أمُ البنين الّتي كانتْ شاهَدَتِ المنظَر من قَبْلُ:

– إنَّه القرْش!

وفتحَ (زياد) فمَهُ وأخذَ يزحفُ خارجًا من الماءِ. وسألَ أباه:

– هل تَعتقدُ أنَّهُ القرْشُ، يا أبي؟

فردَّ الدكتورُ حمدي:

– بكلِّ تأكيدٍ، يا بُني. انظرْ إلى العنابرِ وهي تَتَحرَّكُ قَلِقَةً على صغَارِها.

وسألتْ أمُّ البَنين: وماذا سنَفْعَلُ؟

فقالَ الأبُ بصوتٍ حازم: «اخْرُجا منَ الماءِ حالاً! سنُحاولُ طَرْدَهُ منْ هُنا.»

وساعَدَ الاثنانِ (زياداً) على رُكوبِ كُرسيِّهِ، والصعُّودِ إلى المرفأِ الصَّغيرِ الذي كانَ يَرْسُو علَيهِ زورقٌ بُخاريٌّ مُتوسِّطُ الحَجم، قويُّ المُحَرِّكِ، له قعرٌ منَ البلاستيك الشَّفَّافِ المُقرَّبِ.

ونَزَلَ الجـميعُ إلى الزَّورقِ، وجَلَسَ الأبُ خلفَ عـجلَةِ القيَادَةِ، وجَلسَ (زيادٌ) إلى جانبِه، بينما جلستْ أمُّ البنين في مقعدٍ بالمقدِّمةِ، ولَبِسَ الثَّلاثَةُ أطواقَ النَّجاةِ، وتَحزَّمُوا بأحزِمَةِ الأمانِ.

وأدَارَ الدكتورُ حمدي المُحَرِّكَ وانطلَقَ بالزَّورَقِ نحوَ التَمَوُّجَاتِ.

وفي الطَّريقِ ناولَ (زياداً) بُندقيَّةَ أعماقٍ، وتناولَ هو عصاً كهربائيَّةً تُسمَّى «الرَّكَّالة» تُستعمَلُ لإبعادِ الأسماكِ المُفترِسَةِ، وعلَّقَهَا في حزَامِهِ.

أمَّا أمُّ البنين فكانتْ تُثَبِّتُ في بُندقيَّتِها نُشَّابًا منَ الصُّلبِ اللَّمَّاعِ، وتنظُرُ إلى قاعِ المركبِ مرَّةً ثمَّ إلى البَحْرِ.

كانَ قعْرُ الخليجِ يبدو تحتَهُمْ واضحًا قريبًا كأنَّهم في طائرةٍ تُحلِّقُ على ارتفاعٍ قليلٍ منَ الأرضِ. وازدادَ عُمْقُ الخليجِ في وَسَطِهِ، وابتعدَتِ الأرضُ الَّتي صارتْ تُشْبِهُ ليلاً أخضَرَ غامضًا.

واقتربَ الزَّورقُ منْ مكانِ التَّمَوُّجاتِ حيثُ بدأتْ تظهرُ رؤوسُ بعضِ العنابرِ وذيولُها المُسطَّحَةُ المشطورَةُ، وهي تَبتعِدُ بجلالٍ عن زائرٍ لا تُحبُّه.

وَأوقَفَ الدكتورُ حمدي المُحَرِّكَ حتى لا يَزيدَ من إثارةِ أعصابِها، وانْحنى يَنظرُ إلى الأعماقِ من خلالِ بلّورةِ قَعْرِ الزَّورَقِ.

وأمسكَ (زيادٌ) بمجدافٍ أخذَ يدفعُ به الماءَ منَ الخلفِ. ومَكَثوا يَبحثْون عَن القرْشِ مُدَّةً.

وفَجأةً رأى الدُّكتورُ حمدي ما كانَ يبحثُ عنه:

- إنَّهُ هناك! إلى اليَمين. قرْشٌ كاسرٌ يُطاردُ تُونَةً.

ونَظَرَ من حِفَافِ الزَّورقِ فَلمْ يستطِعْ رُؤْيَتَهُ جيِّداً.

«وقال: لن نُصيبَهُ منْ هنا.»

وبَدأ يُركِّبُ خزَّانَ الأوكسجين عَلى ظَهرِه، وزعانفَ الغطسِ على قَدَمَيْه، ثمَّ ركَّبَ على وجْهِه قِناعَ التَّنَفُّسِ. وأمسكَ بالعصا الكهْربائية، وجلسَ على حافَّة الزَّورقِ، وارتمى إلى الخلْفِ فابتَلَعَهُ الماءُ.

وَمِنْ داخلِ الزَّورقِ كانَ زيادٌ وأُمُّ البنينِ يراقبان المعْركةَ...

كانت التُّونةُ تدُورُ في حلقةٍ واسعة خائفةً هَاربةً بَنفْسِها منَ القرْشِ المُفتَرسِ، والعَنابرُ تَبتَعدُ عنهما بصغارِها إلى أقصى شَمالِ الخليجِ الواسعِ وجَنْبيْه.

ونزلَ الدكتورُ حمدي بهدوءٍ وسطَ الدَّائرةِ، وانبطحَ على أرْضِ القَعْرِ، وأخَذَ يقتربُ من مدارِ الحوتينِ وفي يَدِهِ عصاهُ الرَّكَّالةُ. وحينَ مَرَّ أمامَهُ القِرْشُ العمْلاقُ لَمِسهُ برأسها فَسَرَتْ في جَسَدِهِ رَعْدةٌ كهربائيةٌ شديدةٌ جَعَلَتْهُ يَخرُجُ منْ دائرةِ المطاردةِ لحظةً، ثُمَّ يعودُ إليها.

وَظَلَّتِ التونةُ البليدة تدورُ في الدَّائرةِ نفسِها حتى عادَ القرْشُ إلى مُطَارَدَتها مَرَّةً أخرَى. وكالَ لهُ الدكتورُ حمدي ضربةً أُخرَى أَشدَّ وقْعًا منَ الأولَى، فابتعدَ القرشُ قليلاً ثُمَّ عَادَ. ولَكنْ هذهِ المَرَّةَ كَانَ يقصدُ الدكتورِ حمدي!

وارتجفَ (زيادٌ) وأمُّ البنينِ، وهما يَرَيان، منْ فوقِ المركبِ، القِرْشَ الهائلَ وكأنَّهُ فرْخُ عَنْبَرٍ، وقد سلَّط عينيهِ الحاقدَتَين على والِدِهِما، وفَغَرَ فمًا جَيْبِيًّا هِلاليَّ الشَّكلِ تَحتَ خَطْمِهِ تَمْلَؤُهُ ثلاثةُ صفوفٍ منَ الأسنانِ الطَّاحنَةِ.

وَبجُرْأَةِ الأسدِ الجريحِ انطلَقَ نحوَ الدكتورِ حمدي ماءِ العينين فَتصدَّى لهُ هَذا بعصاهُ وقدْ زادَ في قوَّة تيَّارِها الكهربائي فأدْخَلَها في جَوفِهِ بشجاعةٍ نادرةٍ، فاهتزَّ الوحشُ

الكاسرُ للصَّدمَةِ، وابتَعَدَ يَنْشُدُ النَّجَاةَ!

وَصَرَخَتْ أُمُّ البنينَ صَرخَةَ رُعبٍ، وتَوتُّرٍ، وإعجابٍ بأبيها.

واغتنَم الدكتورُ حمدي هُروبَ القرشِ فَصَعِدَ إلى السّطحِ وَرَمَى بالعَصَا داخلَ الزَّورقِ، وَطَلَبَ منْ (زيادٍ) أن يُناولَهُ البُندقُيَةَ البحريَّةَ، فَفَعَلَ.

وَتَوَسَّلَتْ إليه أمُّ البَنين:

- لا تَعُدْ إليه، يا أبي! فَهُو غاضبٌ... أرجوك!

وَحاولتِ الإمساكَ بيده لتَمْنَعَهُ منَ الغَوصِ مَرَّةً أخرى. ولكنَّهُ لمْ يَكُنْ يَسْمعُها من تحت قناعه الجلْديّ السَّميك، فَغَطَسَ قَبَل أنْ تَستَطيعَ الإمساكَ بيَده.

وَتبعَتْهُ عيْناها حتَّى وصلَ القعْرَ سالمًا، وانبطحَ خلفَ صَخرةٍ، وَأخذَ يُصَوِّبُ بُندقيَّتَهُ في اتّجاه القرشِ الذي كانَ قد عادَ إلى مُطارَدَةِ التُّونَة.

وَدارَ الوَحْشَانِ حَولَهُ دورتَيْن. وَفي الثَّالثَة أطلَقَ الدّكتورُ حَمدي النُّشَّابَ الفولاذيَّ فاخترقَ خياشمَ القرْشِ، وَخَرَجَ منَ النَّاحيَةِ الثّانيَةِ، فابتَعَدَ عَنِ الدَّائرَةِ تاركًا وراءَهُ خطًّا طَويلاً منَ الدَّمِ القاني...

وَصَاحَ الغلامُ والفتاةُ في هَوَسٍ جُنوني:

ـ أصَابَه! أصَابَه!

واغتنَم الدكتورُ حمدي فُرصةَ ابتعاده فَصَعِدَ بسُرْعَةٍ إلى السَّطحِ، وَرَمَى بالبُنْدقيَّةِ إلي (زيادٍ) الَّذي أمسَكَ بها، وربَطَ حَبْلَ النُّشَّابِ المغروزِ في القرْشِ إلى خُرصةٍ فولاذيَّةٍ، وساعدَ أباهُ على تَسَلُّق الزَّورقِ.

وَرغمَ الإصابةِ القاتلةِ التَّي أُصيبَ بها القرْشُ، فَقَدْ ظَلَّ مُدَّةً يُقاومُ وَيُحاولُ التَّخَلُّصَ منَ النُّشَّابِ والحَبلِ المعقودِ به، فيجْذِبُ الزَّورقَ بعُنْفٍ إلى تحتُ أو إلى الخلفِ فيُمسكُ رُكَّابُهُ بحوافِه وتصيحُ أمُّ البَنينَ خوفًا منْ انقلابِه.

ولم تَنقطعْ حركاتُهُ إلاَّ بَعْدَ مُضيٍّ ساعَتَين كاملتين علَى إصَابَتِه.

* * *

وَبادَرَ الدكتورُ حمدي إلى إشعالِ المُحرِّكِ من جَديدٍ، والاتِّجاهِ جَنوبًا نَحوَ مَرفإِ مَدينَةِ (الدَّاخلة) لتَسليمِ القرشِ إلى السُّلطاتِ البَحريَّة هُنَاك.

وَشَعَرَ (زيادٌ) وأمُّ البَنينَ بارتياحٍ كبيرٍ، وفخرٍ عظيمٍ ببُطولَةِ أبيهما، وأخَذَا يَحكيان لَهُ بحماسٍ كبير ما رأياهُ منَ الزَّورقِ، وكأنّهُ لمْ يكنْ حاضراً فيه.

وبعدَ صَمْتٍ طويلٍ علّقَ الأبُ:

- وَدِدْتُ لوْ لَمْ أضْطَرَّ إلى قتْلِ هذا الحَيَوان.

فقالتْ أمُّ البَنين:

- وَلكنَّهُ كانَ يُضَايقُ العَنابرَ وهي تُرْضعُ صِغَارَها. وَقَدْ سَمِعْتُ أنَّ الحليبَ يَجِفُّ في ضُروعِها إذا قَلِقَتْ أوْ خافَت.

وَعَلَّقَ (زياد):

- إلى جانب أنَّها حيواناتٌ غيرُ نافعةٍ. ولا يَصيدُها أحَدٌ عَلى أيٍّ حالٍ. فهي تَتكاثَرُ على هَواها، وتفتَرِسُ الأسماكَ النَّافعَةَ كالتُّن وغَيره.

3

وَفي مَـرفـإِ «الدَّاخلة» اجـتَـمَعَ رجـالُ السُّلطَة والبَّـحَّـارَةُ وجُـمْهُورٌ غَفيرٌ من أهلِ المَدينَةِ ليتَفَرَّجُوا عَلَى الوَحشِ الكاسرِ الذي صَادَهُ الدُّكتورُ حَمدي ماءُ العَينين ويُربِّتُون على ظَهرِهِ ويُرَدِّدون كلماتِ الثناءِ والإعْجَاب.

وَاغتنمَ الدكتورُ حمدي فُرصةَ وُجوده بالدَّاخلَة، فأخَذَ صَغيرَيْهِ لزيارة خالَتِهما (يَمْنَةَ) الّتي كانتْ تَسْكُنُ قريباً منَ المَرفَإِ.

* * *

وَفي أحد مَطْاعَمِ المَرفإِ الذي كان يُديرُهُ إسبانيٌّ عجوزٌ وزوجتُهُ، جَلَسَ أربعةٌ منْ رجالِ البَحرِ الإسْبانِ حَولَ مائدةٍ يَشربونَ الشَّايَ، وَيَتَجَادَلُونَ بأصواتٍ خافتَة.

كانَ رئيسُهُمْ (سانتياغو) يُنصِتُ إلى الحوَارِ الدَّائرِ صامتًا.

كانَ رجلاً قَدْ تَجَاوَزَ سِنَّ الخَمسينَ، لوَّحَتْهُ شمسُ البَحر

فَلَمْ يَبقَ عَليه من مَظهَرِ الأوروبِّي إلاَّ عَيناه الزّرقاوان.

قالَ (ميغيل) أكبرُ البَحَّارة سِنًّا:

- في رأيي، نَعودُ إلى البحرِ ونستَأْنِفُ صَيدَنَا، ونَكسِبُ قُوتَنا بعَرَقِ جَبِننَا.

فَقاطَعَهُ شابٌ إلى يَسَارِهِ يُدْعى (أنطونيو):

- كفَى، كفَى وَعْظًا! سَمِعْنا أسْطُوَانَتكَ هذهِ أَلْفَ مَرَّةٍ!

وأيَّدَهُ الشَّابُّ الثَّاني المَدْعُوُّ (خوسي) مُخاطبًا أنطونيو:

- (ميغيل) خُلِقَ ليكونَ فقيراً! ليعيشَ بائسًا مَحْرومًا طولَ حَيَاتِه!

وَتَدَخَّلَ (أنطونيو):

- انظُرْ إلى العالَم منْ حَولِكَ... كُلُّ واحدٍ يَخْطَفُ لنفسهِ شيئًا... والذَّكيُّ هوَ الذي يَعرِفُ كيفَ يَحصُلُ على ثروةٍ بسْرعَة!

وَحَرَّكَ (ميغيل) العجوزُ رأسَهُ غيرَ مُوافق:

- لا شيءَ في هذا العالَمِ يأتي بدونِ مُقَابِلٍ! وأنا لا أُريدُ أن أدفع مُقابِلَ الثَّراءِ السَّريعِ، فهو دائمًا عِبءٌ على الضَّمير...

وأقْتَرَبَ (خوسي) منهُ مُحاوِلاً إِقْنَاعَه :

– وماذا إِذا كانَ ثراءً سريعًا، ونظيفًا، ولا مُقابلَ لهُ إِلاَّ الذَّكاءُ والعَرَق ؟

فأجاب (ميغيل) :

– إذا كانَ كَذلكَ، فَلاَ مَانعَ عندي. ولَكنْ كَيفَ الوُصولُ إِليه ؟

فَخَفَضَ (خوسي) صَوتَهُ، وزادَ اقتراباً من (ميغيل) :

– المتاحفُ البَحريَّةُ تُعْطِي أثمانًا خياليَّةً في صغَارِ بعض أنواعِ العَنابرِ. ومَا علينا إِلاَّ أن نصيدَ بَعضَها، ونُسَلِّمَها حيَّةً ونقبضَ الثَّمَنَ. واحِدَةٌ تكفي لتَجعَلَكَ تَشتري بنَصيبِكَ الحانةَ التي طَالَمَا حلَمْتَ بشرائها للتَّقاعُدِ واعتزالِ البَحرِ. ماذا تَقول ؟

فرفع (ميغيل) يدَهُ رافضًا :

– ها أنت تَعودُ إِلى هَذَيانكَ السّابق! من أين لنا عنبرٌ نادرٌ نَبيعُهُ لُمتْحَفٍ أمريكيٍّ أو أوروبِّي بثَمَنٍ خَيالي ؟

فأجابَ (أنطونيو) :

ـ إِنَّهُ هُنا . داخلَ الخَليج .

ـ فَجَادَلَ (ميغيل) :

ـ أعرِفُ ذلكَ منْ زَمانٍ. الصَّيدُ في هذهِ المنطَقَةِ مَمنوعٌ .

فَجَادَلَهُ (خوسي) :

ـ مَمنوعٌ! مَمنْوعٌ! مَنْ مَنَعَهُ؟ جَماعَةٌ منَ المغَفَّلينَ مِمَّنْ يُسَمّونَ أَنفُسَهمْ « حُماةَ الطَّبيعَة أو البَيْئَةِ » فَكِّرْ في جَوهرِ الأمورِ. نحنُ كَذلكَ نُحِبُّ الحيتَانَ، وَمِنْ بَحْرِها نَعيشُ ولا نَرضَى لَها الفَنَاء. ولَكنْ إذا صِدْنا عنبراً أو اثْنينِ هلْ سَيَفْنَى النَّوعُ بأسْرِه؟ المُحيطاتُ عامرَةٌ بالعَنابر! وَهيَ تَتَوالَدُ كالبَشَر.

وَسئِمَ (ميغيل) الجدالَ فَقال :

ـ وَهَبْ أنَّنا لا نُوافقُ عَلى هَذا القَانون، فَكَيفَ نَحْتالُ عَلَيْه؟

فانشَرَحَ الشُّبَّان. وقالَ (خوسي) :

ـ الآنَ تكَلَّمْتَ بذكاءٍ! اتْرُكْ طريقَةَ الاحتيالِ عَلى القَانُون لَنا.

وَهَمَسَ (أنطونيو) في أُذُنهِ :

– حارسُ المرفإِ اللَّيلِيُّ صَديقُ الرئيسِ، (دُونْ سانتياغو) أليسَ كذلكَ؟

وَجَّهَ السؤالَ إِلى الرئيسِ الذي كانَ ينظُرُ إِلى الشَّارِعِ من النَّافذَةِ، فَلَمْ يُجِبْهُ.

كانَ ينظرُ إِلى شيءٍ استحْوَذَ على انتباهِهِ بأكْمَلِهِ.. وأخيراً نَطَقَ بصوتِهِ المَبْحُوح:

– أعتقِدُ أنَّ لَمْسَةَ الحَظِّ، أو الفُرصَةَ الذَّهَبيَّةَ الّتي كُنَّا نَنْتَظِرُها، قَدْ حانتْ!

وَنَظَرَ الثَّلاثَةُ منَ النَّافذَةِ إِلى حيثُ كانَ ينظُرُ الرَّئيسُ فرأوا الدُّكتورَ حَمدي ماءَ العينين يَحْمِلُ وَلَدَهُ (زياداً) على ظَهْرِهِ، وَبِجانِبِهِ بِنْتُهُ أُمُّ البَنينِ في طَريقِهِمْ إِلى دارٍ في المَدينة.

وَوَقَفَ الرَّئيسُ، فَسَحَقَ عَقِبَ سيجارَتِهِ في المنفَضَةِ، وشَرِبَ ما بَقِيَ في كأسِهِ منْ الشَّايَ، وَوَضَعَ وَرَقَةً ماليةً على المائدَةِ، وَوَدَّعَ صاحبَ المَطْعَمِ، وَخَرَجَ يَتْبَعُهُ بَحّارَتُهُ الثّلاثَةُ.

* * *

وَلَمْ تَمْض دَقائِقُ حَتَّى كانَ مَركَبُهُمْ يَمْخُرُ مِياهَ الخَليجِ الدَّافئِ الهادئِ نَحوَ الشَّمالِ.

وَحينَ ابتَعَدوا عَنْ أعيُنِ وآذانِ سُلُطاتِ المَرْفَإِ تَقَدَّمَ (خوسي) من الرئيس (سانتياغو) وسَألَهُ هامساً:

- هَلْ سَنَصيدُهَا الآن؟

فَنَفَثَ الرئيسُ دُخانَهُ، وحَرَّك رأسَهُ بالنَّفْيِ:

- (حمدي) لَنْ يَبقى طويلاً في المَدينةِ. وَصيدُ العَنْبَرِ المَطْلوبُ يتَطَلَّبُ يوماً كامِلاً للاختيارِ والمطاردة، والتَّخلُّصِ من أُمِّه:

- وماذا سَنَفْعَلُ الآن؟

- سَنَخلُقُ للسِّنيور حمدي ماءِ العينين سَبَبَاً للذَّهابِ إلى (جُزُرِ الكَناري) والبَقاءِ هناكَ يومًا كاملاً أو يَومَين.

فَصاح (خوسي) بإعجابٍ وَحَماسٍ:

- وَيبقَى الخليجُ وكنزُهُ الثَّمينُ لَنا وَحْدَنا نَتصرَّفُ فيه كما نشاءُ! وَلكنْ كيفَ سنُبْعِدُ ماءَ العينين وَهْوَ عَنيدٌ كالبَغْلِ؟

فَرَفَعَ الرَّئيسُ رَأسَهُ نافثًا دُخانَهُ في الهَواءِ، ولَمْ يَقُلْ شَيئًا.

وَزَادَ حَـذَرُهُ وَتَكَتُّـمُـهُ من أَهَمِّـيَـةِ المُهِـمَّـةِ، وأَهـمِّـيَـةِ الرَّئيس الصَّمُوتِ.

وَانطلقَ المَرْكَبُ يَشُقُّ صَـفْـحَـةَ مـاءِ الخليجِ شَطرَين مُتساوِيَين، وَيخترِقُ سُكُونَهُ بطَلَقَاتِ مُحَرِّكِهِ كَطَلَقاتِ رَشَّاشٍ بَطيءٍ.

واقـتـربَ من مَـمَـرٍّ ضَـيِّقٍ تُحـيطُ به الصُّخـورُ فأبْطَأَ السَّيْرَ لِيَـدْخُلَ بينَ الكُرَتين الكَبـيرَتَين العـائـمـتين الصَّـفْـراوَيْن اللَّتينِ تُبَيِّنان مَوْقِعَ المَمر.

وَمِنْ ثَمَّ ظَهَـرَ لَهُـمُ المَنَارُ الفـارِعُ على الضَّـفَّـةِ الشَّـرقـيَّـةِ للخَليجِ، وتَحـتَـهُ دَارُ القَيِّمِ والحـارِسِ الدَّائمِ، الدُّكتورِ حَـمْدي ماءِ العَينين.

* * *

سُرَّتْ (يمنةُ) حينَ فَتَحَتْ بابَ دَارِها فَوَجَدَتْ زَوْجَ أُختِها المُتَوَفَّاةِ (حليمة) وَهوَ يَحـمِلُ ابْنَهُ (زياداً) على ظَهْرِهِ، وَمَعَهُ بنتُهُ أُمُّ البَنين.

ورَحَّبَتْ بهِمْ بحَرارَةٍ، وراحتْ تُعِدُّ العُدَّةَ للغَداءِ، فَتَبِعَتْها

أمُّ البَنينَ إلى المطبخِ لتُساعِدَها وتَتَحَدَّثَ مَعَها.

كانتْ (يمنةُ) امرأةً في عقدها الثَّالثِ، جميلةً ورشيقةً. وكانتْ تُديرُ إحدَى مدارسِ البناتِ بالمدينة. ولم تتزوَّجْ بعدَ استشهادِ زوجِها في حربِ التحرير وكرَّستْ حياتَها للتعليمِ ومُساعدَةِ المُعَوَّقينَ والأيتامِ.

وكانت تُحبُّ أمَّ البَنين حُبَّها لأُختِها الرَّاحلةِ. كانتْ تَرى فيها نُسخةً طبقَ الأصل منها، إلاَّ أنَّها أصغرُ وأجْمَلُ.

وكانتْ أُمُّ البَنينَ تُبادِلُها حُبًّا بحُبٍّ، وتُحِبُّ الحَديثَ إليها، وتَرَى فيها مثَلَها الأعلَى.

وَعَلى مائدة الغَداء تَنَافَسَ (زيادُ) وأُختُهُ في حكايةِ مُغامرةِ والدِهِما مع القِرْشِ لخالَتِهِما وأَضْفَيَا عَليها هالةً منَ البُطُولَةِ الأُسْطُورِيَّةِ.

وَعاتَبْت (يمنةُ) الدُّكتورَ حَمدي قائلةً:

– لماذا تُعَرِّضُ نَفْسَكَ لهذه المَخاطر، يا دُكتورُ حَمدي؟

فَردَّ الدُّكتورُ:

– أَخْشَى أنَّ ذلك طَرَفٌ من عَمَلي، ولابُدَّ لأَحدٍ أن يقومَ به.

4

وفي الخليج كانَ مركبُ القَراصِنَةِ قَدْ وَصَلَ إلى المَنارَةِ، وَرسَا بالمرفإِ الصَّغيرِ، وَقَفَزَ منهُ الرَّئيسُ، وأشارَ إلى خوسي أنْ يَتْبَعَهُ.

وَوَجَدوا الأبوابَ مُقْفَلَةً، ولكنَّهمُ استطَاعوا الدُّخولَ منْ نَافذَةِ أمِّ البَنينَ الَّتي نَسيَتْها مَفْتوحَةً.

ولمْ يبحثوا طويلاً، فقد وَجَدوا مَكتبَ الدُّكتورِ حَمدي في الطَّبقَةِ الثَّانيَة، وَبَحَثَ الرَّئيسُ في أدراجِ المَكتبِ، وَفَوقَ الرُّفوفِ، وفي صُندوقٍ عَلى الأرضِ عَن شيءٍ بعينِه، عَنْ قطعَةِ غِيارٍ مُعَيَّنةٍ. فَلمَّا لمْ يَجِدْها قَصَدَ جهازَ اللاّسلكي فَانْدَسَّ خَلْفَهُ وأخرَجَ منْ جَيْبه مفتاحَ لوالِبٍ، فَفَتَحَ لَوْحَهُ المعْدَني، وبَحَثَ عنْ سِلْكَين رَبَطَ أحَدَهُما بالآخرِ ربطًا خَفيفًا، ومَدَّ يَدَهُ فَأشْعَلَ الجهازَ. وَفي الحالِ سُمِعَ صوتٌ كَصوتِ طَلْقَةٍ مكتومةٍ قَفَزَ لهُ (خوسي)، وَصعِدَ من خَلْفِ الجهازِ دُخانٌ خَفيفٌ.

وأعادَ الرئيسُ الغطاءَ، ولَولَبَ المساميرَ الأربعةَ على ظَهْرِ الجهازِ، وأشارَ إلى خوسي أن يتبعَهُ دونَ أنْ ينبسَ بكلمةٍ، وكأنَّ أحداً في الدار.

وحينَ خرجَ خوسي منَ النَّافذَةِ، نظرَ الرئيسُ حَواليهِ، وأخرَجَ منْ جَيبهِ منْديلاً مَسَحَ به آثارَ بَصمَاتهِ عن ظَهْرِ الجهازِ ومفتاحِهِ، وَمقْبضِ البابِ ثُمَّ انْحَنَى يَنشُ بهِ على آثارِ أحْذيَتهما على الأرضِ العَراءِ. ثُمَّ قَفزَ منَ النَّافذةِ هُوَ الآخرُ، وأقْفَلَهَا بعنايةٍ خَلفَهُ.

وهَمسَ لَهُ خوسي في الطَّريقِ قائلاً:

ـ هَلْ سَيَكْفي ذلكَ لإرسالهِ إلى (كناريَاس)؟

ـ بكُلِّ تأكيدٍ...

وَقَفزَ الاثْنانِ إلى المرْكَبِ الذي كانَ مُحَرِّكُهُ ما يزالُ يَدُورُ، وانطلقَا عائدَيْن بأقْصَى سُرعَة.

* * *

وفي دارِ الخالَةِ (يمنة) بالدَّاخْلَةِ، تَمَدَّدَ الدُّكتورُ حَمْدي على حَشيَّةٍ وَثيرةٍ يَرْتَشِفُ كأسَ شايٍ ساخنٍ بنعْناعٍ جَديدٍ عَطْشانٍ كانَ قَد اشْتاقَ إليهِ، و(يمنةُ) تَنْظُرُ إليه منْ حينٍ لآخرَ

منْ تَحتِ غطاءِ رَأْسِهَا الشَّفَّافِ البَنَفْسَجيّ في خَفَرٍ صَحراويٍّ مُحَبَّبٍ.

كانتْ تَحكي للصَّغيرين عَن أُمهِمَا، وتُعَدِّدُ فَضائلَها، وتَصِفُ جَمَالَها.

ولَمْ تَذكُرْ للُدكتور حَمدي، هذه المَرَّة، رغبَتَها القَديمَةَ في تَركِ الطِّفلين مَعَهَا، كَما كانتْ تَفْعَلُ كَلَّمَا زارَها. فَقَدْ خَشيَتْ منْ إثارَةِ قَلَقِه وانْقطاعِ زياراتِه.

كانتْ في سرِّهَا تُحبُّهُ، وتَرْفُضُ الزَّواجَ منْ كُلِّ مَنْ يَتَقَدَّمُ إلَيْها منَ الخُطَّابِ.

واكْتَفَتْ بقَولِهَا له:

- أمُّ البَنينَ كَبِرَتْ، تَبَارَكَ اللَّهُ عَلَيها! وأَصْبَحتْ عَروسةً جَميلةً. وَحَياتُها في المنَارَةِ البَعيدَةِ عَن المَدينَةِ سَتُؤَثِّرُ في أُنوثَتِها وطَبْعِها في هذه المَرْحَلَةِ الدَّقيقَةِ. فَهَلْ تَنْوِي أنْ تُبْقِيَهَا مَعَكَ حَتَّى بَعدَ حُصولِها عَلَى الشهَادَةِ الثَّانَويَّة؟

وَسَكَتَ الدُّكتورُ حَمْدي، ونَظَرَ إلى الأرضِ مُفَكِّرًا، ثُمَّ قال:

- مَا أسرَعَ الأيَّامَ! بالأَمْسِ فَقَطْ، وَهيَ طفْلَةٌ رضيعَةٌ وهَا هيَ اليومَ...

وأشَارَ إليها، وهي تَغْسِلُ الأطْباقَ في المَطْبَخِ وَتَتَحدَّثُ مع (زيادٍ) وأضافَ:

– يَكونُ خيرٌ، إنْ شاء اللّه...

وَنهَضَ مُسْتَعِداً للذَّهابِ، فَحَاوَلَتْ (يمنة) اسِتبقاءَهُ، فَاعْتَذَرَ لَها:

– لابُدَّ مِنْ وُجودي بالمنَارَة. هَذا مَوْسمُ امْتِلاَءِ الخَليجِ بالحيتَانِ. وَقَدْ يَتَكَرَّرُ ما حَدَثَ اليَومَ.

وَدَعَتْ لهُ بالحِفْظِ والسَّلامةِ، وعانَقَتِ الطِّفْلين بحرارَةٍ، وقَد أغْرَوْرَقتْ عَيناها لفِراقِهِمَا...

– عُودوا قَريباً إلى الدَّاخْلة...

وبعدَ ابتْعادِهِمْ عادتْ أُمُّ البنين، وعَانقَتْها قائلةً:

– وَدِدْتُ لو بَقِيتُ مَعَكِ هُنا... ولكنَّ أبي و (زياداً) يَحتاجانِ إليَّ، ولا أستَطيعُ فراقَهُما.

وَمَعَ غُروبِ الشَّمس خَلْفَ التّلالِ الرَّمليَّةِ من لسانِ الدَّاخلة، كانَ الزَّورَقُ يَرسو بهُدوءٍ على المرفإِ الصَّغيرِ أمامَ المَنارِ الفارِعِ الطُّولِ.

5

وفي صباحِ الغَدِ اسْتَيْقَظَ (زيادُ) وأمُّ البَنينَ مُبَكِّرًا، وَصَعِدَا إلى أبيهما في مَكْتَبِهِ.

وحينَ رآهُمَا عَرَفَ لماذا قَدِما:

ـ جئتُما لتَجْرِبَةِ الغَطَّاسَةِ، أليس كَذَلك؟

فَصاحَ (زياد): طَبعًا، طَبعًا... وأرجو ألاَّ يُعَكِّرَ ذَلكَ عَلَينا قِرْشٌ آخرُ!

فَصاحتْ أمُّ البَنينَ مُستَعيذَةً: «بَعيدٌ البَلاءُ والبأْسُ»!

فقَال (زيادٌ) مُسْتأْنِفًا ما كان بَدَأ بالأمسِ:

ـ سَنَعْبُرُ الخَليجَ إلى الضَّفَّةِ الغَربيَّةِ، كَما قُلنا بالأمسِ، آه؟

وَحكَّ الُدكتورُ حَمدي لحْيَتَهُ قَليلاً ثُمَّ قال: حَسَناً.

فَصاحَ (زيادٌ) فَرحًا، وَقفزتْ أختُهُ إلى جانبِهِ: وأنا أَذْهَبُ مَعَكَ.

فَرفَعَ الأبُ يَدَه: ولكنْ بشرْطٍ!

وقَبْلَ أنْ يَخيبَ أملُ (زياد) أضافَ أبوه :

ـ أنْ نَذْهَبَ مَعَكَ أنا وأمُّ البَنينَ .

فَنظرَ إليه (زِيادٌ)، وهوَ يَحْجُبُ شَمسَ الصبَّاحِ عَن عينيه بيَدِهِ وقال :

ـ بالمَرْكَبِ؟

ـ لا سباحَة .

ـ ولكنَّني أسْرَعُ منْكُما .

فأجابَ الأبُ : « سأُمسِكُ أنا بإِحْدَى رِجلَيكَ وأُمُّ البَنينَ بالرِّجْلِ الأُخْرَى، وَتَجُرُّنا خَلْفك، مَاذَا تَقولُ؟ »

وَفَكَّرَ (زيادٌ) قليلاً، ثُمَّ قالَ : « وهَلْ تَحْتَمِلْ الغَطَّاسَةُ كُلَّ هذا العِبْءِ؟ »

فَقَالَ الدكتورُ حمدي : « إِنَّها صُنعَتْ لأكثَرَ منْ ذلك . »

وابتَسَمَ (زياد) مُوافقاً .

وبعدَ لَحظَةٍ كانَ الثَّلاثَةُ يَسْبَحونَ تحتَ الماءِ عَبْرَ الخَليجِ العَميق . . .

وَسَمِعَت العَنابِرُ صوتَ مُحَرِّكِ الغَطَّاسَةِ الجَديدَةِ فأخَذَتْ

تَقْتَرِبُ برُؤوسِها الضَّخْمَةِ لِتَرَى هَذا الزَّائِرَ الغَريبَ.

ولَمْ تَلْبَثْ أنْ تَعَرَّفَتْ عَلى الدُّكتورَ ماءَ العَينين وَوَلَدِيْه، فأحسَّتْ بالأَمَان...

6

كـانَ الدُّكـتـورُ مَـاءُ العَـينين قَـد اخْـتَـصَّ، بعـدَ دراسَـتِـهِ الجامعيةِ، في دراسَةِ العَنابر بَجَميع أنواعِها، وتَعَلَّمَ الكَثيرَ عَنْ طِباعِها، ودَرَجاتِ ذَكَائها، وطُرُق تَفاهُمِها معَ بَعضِها البَعْضِ. وَسَجَّلَ كثيراً من أصواتِها وأخَذَ يُحاوِلُ تَقْليدَها والتَّفاهُمَ معَها.

وعَلَّمَ وَلَدَيْه، زياداً، وأمَّ البَنينَ، بَعضَ الأَصْواتِ ومَعانيها بالنِّسْبَةِ للعَنابرِ والدَّلافين. فكانا يَقْضيان أوقاتًا مُمْتِعَةً بَيْنَهَا، يَتَعَلَّقَان بزَعانفِها الجانبيَّةِ الشَّبيهَةِ بأَيْدي البَشَر.

ووَصَلَ الثَّلاثَةُ إلى الضِّفَّةِ الغَرْبيَّةِ دونَ جُهْدٍ كَبيرٍ. وَخَرجوا فَجَلَسوا عَلى حافَةِ صَخْرةٍ يَنْظُرونَ إلى العَنابِرِ وهيَ تَقْتَرِبُ منْهُمْ برؤوسِها، وعُيونِها الصَّغيرةِ. وبَعضُها يَتَنَفَّسُ فَيُرسِلُ نافورَةً منْ رَذَاذِ الماءِ في الهواءِ...

قالَ زيادٌ وهوَ يَرى عَنْبراً صغيراً يحومُ حولَ أُمِّهِ:

ـ ما أشْبَهَ العَنْبَر بالإنسانِ!

فَقالَ الدُّكتورُ ماءُ العَينين:

ـ تذكَّرا أنَّ العنابرَ حَيَوانات بَرِّيَّةٌ انْتَقَلَتْ إلى البَحرِ بالتَّدْريجِ عَبْرَ آلافِ السِّنينَ.

وهيَ حَيَوانَاتٌ مُرْضِعَةٌ كالإنسانِ. بمعْنَى أنَّها تَلِدُ صِغَارَها منْ بَطْنِها بعدَ حَمْلٍ يدومُ قرابةَ السَّنَةِ، بينمَا أغْلَبُ الأسماكِ تَبيضُ البَيْضَ وتتركُهُ. وهيَ تُرضِعُ أبناءَها لَبَنًا. وهي منْ ذَواتِ الدَّمِ السَّاخِنِ، وتَتَنَفَّسُ الهَوَاءَ بِرِئَتَيْنِ وإذا لمْ تَستطعِ الصُّعودَ إلى السَّطحِ للتَّنَفُّسِ لِسَبَبٍ مَّا فإنَّها تَغرَقُ وتَموتُ تمامًا مِثْلَنا.

وَسَأَلَتْ أُمُّ البَنين:

ـ قُلتَ لنا مَرَّةً أنَّ للعنْبَرِ مُخًّا كَبيرًا، فَهَلْ هُوَ ذَكيٌّ؟

فَتَرَدَّدَ الدّكتورُ حَمدي، وأجابَ:

ـ لا أدْري. وَلا أعتَقِدُ أنَّ الذَّكاءَ يَعْتَمِدُ علَى حَجْمِ المُخّ.

ثُمَّ فَكَّرَ وقال:

ـ وَلَكنْ هُناكَ أنْواعٌ كَثيرةٌ منَ الذَّكاءِ. مَثَلاً، حينَ كُنتُ أنا طِفْلاً صغيراً كانَ الكِبارُ يَعتَبِرونَ الذَّكاءَ هُوَ الحِفْظُ، حِفْظُ

القـرآن، وبعضِ الأحـاديثِ النَّبَـويَّةِ، والنّصـوصِ اللُّغَـويَّةِ، والأشْعارِ. ولمْ يَكُونوا يُعْطُونَ للفَهْمِ، والقُدْرَةِ عَلى الاسْتِنْتَاجِ أيَّةَ قيمَةَ. فَتَوَقَّفَ التَّجْديدُ، ومَاتَت كَثيرٌ منَ المَوَاهِب. ولَكِنَّ ذلك تَغَيَّرَ اليومَ، وأَصْبَحَ الذَّكاءُ يَتَنَوَّعُ بتَنَوُّعِ مَواهِب النَّاسِ. فَكُلُّ واحدٍ ذَكيٌّ في اخْتِصاصِهِ أو فَنّه الَّذي يُتْقِنُهُ ويُفَضِّلُهُ عَلى غَيرِه.

وَتَنَهَّدَ وأضاف: «ولَكنْ مَهما يكُنْ ذَكَاءُ هذه الحيتانِ العظيمَةِ الجميلةِ النَّافِعَةِ للإنسانِ، فَبَعْضُ الأغبياءِ والجَهَلَةِ والأنانيّينَ منَ البَشَرِ، يَعمَلونَ على إبَادَتِها، وإفْناءِ نوعِها بكَثْرةِ صَيدِها، دونَ تَمييزٍ بَينَ صَغيرِها وكَبيرِها، كَثيرِهَا ونَادِرِها.»

فـقـالَ زيادٌ مُـتـأَثِّراً: «وَلَكِنْ، ألمْ تَقلْ لَنا، يا أَبي، حينَ عُدْتَ من (نيويورك)، في السَّنةِ الماضيَةِ أنَّ هَيئةَ الأُمَمِ المُتَّحِدَةِ كَوَّنَتْ لَجْنَة لحمايَةِ العَنابِر، وتَحريمِ صَيدِها في مواسمِ تَوالُدِها ومَنْع صَيْدِ صِغارِها؟ وَإِنَّكَ تَقَدَّمْتَ بمَشروعٍ لتحريمِ الصيّدِ في بَعضِ الخُلْجانِ الَّتي تَأْوي إليها العَنابرُ لوَضْعِ صِغَارِها في أنْحَاءِ العالَم.

فَتَنَهَدَ الدُّكتورُ ماءُ العينين، وَوَضَعَ يَدَهُ على رأْسِ ابْنِهِ، وداعَبَ شَعْرَهُ، وأجاب:

ـ نَعَمْ، يا زيادُ. هَيْئَةُ الأُمِ المُتَّحِدَةُ كَوَّنَتِ اللَّجْنَةَ، وَوَضَعَتْ عِدَّةَ قَوانينَ لِحمايةِ البَيْئَةِ الطَّبيعيَّةِ والحَيوانِ البَرِّيِّ والبَحْريِّ منَ الانْقِراضِ. فالحَيَوانُ شَرِيكُنا في الحَيَاةِ عَلَى هَذا الكَوْكَبِ. ووَاجِبُنا كَحَيَوانات عاقلةٍ أنْ نُحافظَ عَلى بَقَائه. وَلكِن، هُناكَ أنواعٌ منَ البَشَرِ لا تُهمُّهُمْ هَذه المُثُلُ العُليا. فَلَيْسَ لَهُمْ أخْلاقٌ ولا أديانٌ ولا ضَمَائرُ تَمنَعُهُمْ من ارْتكابِ هَذه الجَرائمِ البَشعَةِ، ولا فائدَةَ في أَيِّ قانونٍ، ما دامَ لا يوجَدُ مَنْ يُطَبِّقُهُ وَيَحْميه بقُوَّةٍ أكبرَ منْ قُوَّةِ مُخالفيه.

فَقالتْ أمُّ البنينَ بلَهْجَة صَادرَةٍ عَن طَبعهَا المُتَفائلِ: "أمَّا هُنا، وَفي خَليجِ (الدَّاخلة)، فَلَن يَجْرُؤَ لِصٌّ ولا قُرصانٌ على الاعْتداءِ عَلى عَنابرِنَا ونَحْنُ أحْياءٌ!»

فابْتَسَمَ الدُّكتورُ حَمدي مُسْتَبْشراً، ونَظَرَ إلى ساعَتِهِ، وَقالَ، وكأنَّما تَذكَّرَ مَوعداً مُستَعْجَلاً:

ـ تَأخَّرْتُ. لِنَعُدْ إلى المَنزلِ فَإنَّ عَلَيَّ أنْ أذهبَ اليومَ إلى

(الدّاخلة) ومنها إلى جَزيرةِ (كاناريّاس) لشِراءِ قِطْعَةِ غِيارٍ للأَسلْكي، فَقَدْ حَصَلَ فيه عَطَبٌ هذه اللّيلَةَ.

وكَانَ منزلُهُمَا الصّغيرُ يَلوحُ على الضّفّةِ الشّرقيّةِ مِنَ الخَليجِ أبيضَ مائلاً إلى الزُّرقَةِ، بنوافذهِ الصّغيرَةِ، وَجُدْرَانه السّميكَةِ لمَنْعِ الحَرارةِ. وكانَتْ تُطِلُّ عَليه من فَوقه المنارةُ العاليَةُ تَحْمِلُ عَلى رأسِهَا مِصْباحًا ضَخْمًا يُومِضُ في اللّيْلِ بأَشِعَّةٍ قويَّةٍ تراها السُّفُنُ من بَعيدٍ عَلى شاطئِ المُحيطِ الأطْلَسي.

وَعادَ الثّلاثَةُ بنَفْسِ السُّرْعَةِ الّتي عَبروا بها إلى الضّفّةِ الغَربيَّةِ.

ونَظَرَ الدُّكتورُ حَمدي إلى ساعَتهِ المائيَّةِ، وَصَعِدَ بسُرْعَةٍ فاغْتَسَلَ، ولَبِسَ، وَنَزلَ فَقَبَّلَ (زياداً) وأمَّ البَنينَ، وأوصاهُما بمُراجَعَةِ دُروسِهِما وحِراسَةِ الحيتَانِ في غِيابه، وَبألاَّ يَدخُلا الماءَ لأيٍّ سبَبٍ، وأنْ يُقْفِلاَ الدّارَ عَليهِمَا إذا حَضَرَ أيُّ غَريبٍ. إلى غيرِ ذَلكَ منَ الوَصايَا التي حَفِظَاها عَنْ ظَهرِ قَلْبٍ لكَثْرَةِ ما سَمِعَاها

وَوَجَّهَ إنذاراً خاصًّا (لزيادٍ):

– إيَّاكَ أنْ تستعْمِلَ الغطَّاسَةَ في غِيابي!

فابْتسمَ (زيادٌ)، وقال:

– إلاَّ في حالةِ طوارئٍ أو اسْتعْجالٍ خَطيرَةٍ.

وَحَرَّكَ والدُهُ رأسَهُ قائلاً:

– لا أدري كيفَ يُمكنُ أنْ تَحْدُثَ هذهِ الحالةُ. وَلَكنْ تذكَّرْ أنَّكَ حَديثُ عَهْدٍ باستعْمَالها، وَلا أُريدُكَ أن تَغْرَقَ.

فَقالَ (زِيادٌ) مُطَمْئِنًا وَالدَهُ:

– لا تَخَفْ، يا أبي.

وَالْتَقَطَ الأبُ حَقيبَةَ سَفَرٍ صغيرةً، وَرَمَى بها داخلَ الزَّوْرَق السَّريعِ، ونَزَلَ إليه وأدارَ مفتاحَ المُحَرِّك، وَانْطَلَقَ يَشُقُّ الماءَ والهواءَ في اتِّجاهِ الجنوبِ نَحوَ مَدينةِ (الدَّاخلَة). ولَمْ يَنْتَبِهْ لمركَبِ القَراصنَة الَّذي كانَ يَختَفِي دَاخلَ كَهْفٍ كَبيرٍ مُظْلمٍ عَلَى الضِّفَّةِ الشَّرقيَّةِ تُحجُبُهُ أشعَّةُ شمسِ الضُّحَى الباهرَةِ.

وَعَلى مرفإٍ (الدَّاخلة) أرْسى الدُّكتُورُ حَمدي زَورقَهُ وَرَبَطَهُ، وحمَلَ حَقيبتَهُ، وأسْرَعَ في اتِّجاهِ المَطارِ القَريبِ عَلى قَدَمَيْه.

وَلَمْ تَمضِ عَلى وُصولهِ نصْفُ ساعة حَتَّى أقْلَعَتِ الطَّائرةُ مُتَوَجِّهَةً به غَرْبًا نَحوَ جُزرُ الكَناري..

7

وَفي الخَليجِ كانَ القَراصِنَةُ المُخْتَبِئُونَ في الكَهْفِ المُظْلِمِ يَنتظرونَ مُرورَ زَوْرَقِ الدُّكتورِ ماءِ العينين. وَحينَ مَرَّ منْ أمامِهِمْ ضَحِكُوا جَميعًا، وَضَرَبوا علَى ظَهْرِ الرَّئيسِ (سانتياغو) إِعجابًا بنَجاحِ خُدْعَتِهِ.

وَرَاقَبوا مَرْكَبَهُ حَتَّى ٱبْتَعَدَ عَن مَدَى البَصَرِ ولَفَّهُ سَرابُ الماءِ والصَّحراءِ، فَخَرجوا من مخْبَئِهِمْ، وَتوجَّهوا بأقْصَى سُرْعَةٍ نَحْوَ بُحَيرةِ العنابرِ.

وَسَمِعَ (زيادٌ) صوتَ المُحَرِّكَ يَخْتَرِقُ الهَواءَ السَّاكنَ مِن بعيدٍ. وكانَ يُراجِعُ بَعضَ دُروسِهِ في غُرفَتِهِ، ويَنْظُرُ إِلى الخَليجِ كلَّما تَعِبَتْ عَيناهُ، فَرَفعَ رأسَهُ لِيُنْصِتَ جَيِّدًا.

وَبعْدَ لَحْظَةٍ تأكَّدَ من أنَّ الصَّوتَ لَيسَ صوتَ حَوَّامَةٍ (هيلكوبتر)، ولا طائرةٍ فرديةٍ من اللَّواتي اعْتَدْنَ التَّحْليقَ فوقَ الخَليجِ. فَنَادَى أُختَهُ: «أمَّ البَنينَ!»

وكانتْ في المَطبخِ تهيئ الغَدَاءَ، فَصاحَتْ: «مَاذا تُريدُ؟»

– تَعالَيْ.

فجاءَتْ وفي يَدِها بطاطة تُقَشِّرُها: «مَاذا؟»

– أنْصِتِي...

– مَاذا سَمِعْتَ؟

– صوتَ مركبٍ يقترِبُ من هُنا.

فَأرهفَتْ سَمْعَها، فَجاءَتْها دَقَّاتُ المُحَرِّكِ الرَّصاصِيَةُ السَّريعَةُ الرَّتيبَةُ عَبْرَ نَسيمِ الضُّحَى الرَّقيقِ. قَالَتْ إِنَّهُ مَرْكَب.

وَخَرَجَتْ مُسْرِعَةً لترى. وَتَبِعَها (زيادٌ) يدفَعُ عَجَلاتِ كُرْسِيِّهِ بيدينِ قَويَّتَيْن حَتَّى وقفَ بجانِبِها في ساحةِ الدَّارِ الخارجيَّة.

وَفِعْلاً كانَ مَركبُ القراصنةِ يَقتربُ نَحوَهُما بسُرْعَةٍ كبيرةٍ، وَلَمَّا لمْ تكُنْ تَصِلُ إلي مِنطَقَةِ المنارَةِ إلاَّ بَعضُ المَراكبِ الرَّسميَّة أحيانًا للتَّفتيشِ أو الحِراسَةِ، فَقَد شَكَّا في هُويَّةِ المَركبِ القادمِ. لمْ يَكُنْ يَبْدو عَليه أنَّهُ مَركبٌ رَسْمي.

وَحينَ اقْتَرَبَ تَأكَّدَا من أنَّهُ مَرْكَبُ صَيْدٍ أجنبيّ. وأسرَعَت

أمُّ البنينَ إلى مَكتَبِ أبيـهـا، وعـادتْ بمنظارِهِ المُقرِّبِ، ووَقَـفَـتْ تَنظُرُ إلى دَاخلِ المركبِ، وتُعَلِّقُ:

- إنَّهُمْ بَحَّارَةٌ إسْبَانٌ.

وَناولتْ زياداً المنظارَ، فَقال:

- إنَّهُمْ يُخْفُـونَ اسْمَ المَركبِ وَرَقْـمَـهُ ببـعضِ القُـمـاشِ.

وَناولَها المِنْظارَ لتَتَأكَّدَ.

- صَدَقْتَ. ولَكنْ لماذا؟

- لا بُدَّ أنَّهمُ يُريدونَ شَراً.

وَخافتْ أمُّ البنينَ، فَقالتْ لأخيها:

- تَعالَ ندخلْ، ونُغْلِقْ عَلينا البَابَ كَما قالَ لَنا أبونا. وَنَظَرَ زياد بالمُقَرِّبِ إلى المَركَبِ وَقالَ مُقْتَبِساً الآيةَ القُرآنيَّة: ﴿ **وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ** ﴾، لابُدَّ أنَّهمْ قراصِنَةُ عَنابرٍ!

وَاسْتَعْجَلَتْهُ أمُّ البَنينَ فَدَخَلَ الدَّارَ، وأقفلتْ هيَ البـابَ الثَّقيلَةَ بالمِزْلاج.

وَوَصَلَ مَـركَبُ القَـراصنَة إلى مـرفـإِ المَنارَة. وأدْلَوا المِرْسَـاةَ،

وأنْزلُوا زَورقًا منَ الألْيافِ الزُّجاجيَّةِ ذا قَعْرٍ شَفَّافٍ، ونَزَلَ فيه بَحَّارانِ بملابسِ الغَطْسِ وبأَيْديهِما بُندُقيَّتانِ قَصيرتانِ لا تُشْبَهان بَنَادقَ صَيدِ البَحْرِ.

وكانتْ أمُّ البنينَ قَدْ أقْفلتْ جَميعَ النَّوافذِ، كَما أوصاها أبوها، ووَقَفَتْ، وإلى جانبِها (زياد)، ينظُرانِ من شُقوق نافذَته.

وَانْزَعَجَ (زيادٌ) حينَ رأى البَحَّارَيْنِ يَحمِلانِ السِّلاحَ الغريبَ.

– لمْ يبقَ لي شَكٌّ في أنَّهمُ قَراصنةُ عَنابرٍ! كانوا يَنتَظِرونَ ذَهابَ أبينا ليأتوا لسَرِقَةِ عَنبرٍ رَضيعٍ.

فَشَهقَتْ أمُّ البَنينَ خَوفًا واسْتنكاراً:

– وَماذا سيَفْعلونَ بهَ؟

– قَرأتُ في إِحْدى المَجلَّاتِ أنَّ حَدَائقَ الأسْماكِ والحيتَانِ تُعْطي ثَرَوَاتٍ كبيرةً لِمَن يَأتيها بالحَيَوانات البَحْريَّةِ النَّادرة.

– ولكنْ كيفَ يَستطيعونَ أخْذَ الصَّغيرِ من أُمِّه؟ ألا يَخَافُونَ غَضَبَها؟

- إنَّهمُ خُبَراءُ في السَّرقَةِ، وقُساةٌ غلاظُ الأكبادِ. لا يَتَوَرَّعونَ عَن قَتلِ الأمِّ إذا وَقَفَتْ في طَريقِهِم.

فَفَتَحتْ أمُّ البَنينَ فَمَها إشْفاقًا عَلى العَنابرِ المُسالمَةِ الآمنَةِ، وقالتْ:

- لا بُدَّ من عَمَلِ شيءٍ لإيقافِهمْ عندَ حَدِّهم.

- ولكنْ ماذا سَنَفْعَلُ وهُمْ مُسَلَّحونَ وأكبرُ وأكثرُ مِنَّا عَدَدًا؟

وكانَ الرَّئيسُ (سانتياغو) يُشْرفُ من فَوقِ المركَبِ عَلى العَمَليَّةِ، فَأمْسَكَ بالمِنْظارِ المُقَرِّبِ الذي كانَ مُعَلَّقًا على صَدْرِهِ، وأخَذَ يَمْسَحُ بِبَصَرِهِ الخَليجَ والبُحَيرَةَ الواسعَةَ الّتي تَرقُدُ في أعْماقِها الحيتانُ وَصِغارُها.

وَفَجأةً وَجَّه المنْظارَ نَحْوَ المَنارةِ، وَأخَذَ يَتَأمَّلُهَا، فانْحَنَتْ أمُّ البَنينَ لِتَتَفادَى نَظْرَتَهُ وكَأنَّما كانَ يَراهَا فِعلاً من خَلفِ أبوابِ النَّافذَةِ. فقال زيادٌ:

- إنَّهُ لا يَرانا.

- هلْ تَعتَقِدُ أنَّهُ يَعرِفُ أنَّنا هُنا؟

- بدون شَكٍّ!

وَأطَلَّ زياد منَ الشَّقِّ فَرَآهُ يطلُبُ منْ مُساعدِه شيئًا، وينظُرُ إلى الدَّارِ. وجَاءَهُ المُساعدُ ببوقٍ فَرَفَعَهُ إلى فَمِه وَتَكَلَّمَ فَدَوَّى صَوتُهُ في هُدوءِ الخَليجِ كانْفجَارٍ هَائلٍ:

- أنا أعرفُ أنَّكما هُناكَ. نحنُ لا نُريدُ بِكُما شرًّا.

وَفَتَحَ زيادٌ النَّافذَةَ، عَلى الرَّغم من مُعَارَضَةِ أخْتِه، وصاحَ بَينَ كَفَّيْه:

- إذا كُنتُمْ لا تُريدونَ شرًّا، فَلِماذا السِّلاحُ؟

- إنَّهُ لصَيدِ العَنابرِ.

- تَعني قَتْلَ العَنابرِ؟

لا يا مُغَفَّل، إنّهُ لا يَقتُلُ، بَلْ يُخَدِّرُ فقط.

وَتَرَدَّدَ (زياد) فَصاحتْ أمُّ البنينَ بدَورِها:

- إذا خدَّرتُمُ العَنْبَرَ عَجَزَ عَن الصُّعودِ إلى السَّطحِ للتَّنفُّسِ فَيَموتُ.

وَتَوَقَّفَ الرَّئيسُ ليُعطِيَ الأوامرَ لضَفادعِه الَّذينَ نَزَلوا إلى المَرْكَبِ للْبَحثِ عَن عَنبرٍ رَضيعٍ. وحَين تَحرَّكوا نَحوَ البُحَيرةِ

التَفَتَ هُوَ إلى الدَّارِ، وصاحَ ساخِراً:

ـ مَنْ قالَ لكِ إنَّ الحيتانَ تَغرَقُ، يا مُغَفَّلَةُ؟

ـ قَرَأتُ ذلكَ في الكُتُبِ، وَرَأَيْتُهُ بِعَيْنَيَّ.

فَألغَى كَلامَها بقَولِهِ:

ـ أنْتمُ العَرَبَ أغبياءُ! ولا تَعرِفونَ شَيئاً!

فأحَسَّ زيادٌ بالحنق لسماع ذلكَ، فَصاح فيه:

ـ الأغبياءُ هُمْ أنتُمْ!

وَأضافَتْ أمُّ البَنينَ بِمَكْرٍ مُقْنع:

ـ لا يُمكنُ أنْ يكونَ الَّذينَ بَنوا كُلَّ تلكَ المآثِرَ الحَضاريَّةَ الجَميلةَ عندكُمْ بالأنْدَلُسِ أغْبياءَ!

ـ ولكنَّنا أخْرَجْناكُم منَ الأندَلُسِ!

وَأحَسَّتْ أمُّ البنينَ بالقَهْرِ فَانْفَجَرَتْ باكية...

وَاغرَورَقتْ عَينا زيادٍ وصمَّمَ عَلى الانْتقام. وقالَ لِنَفْسهِ بصَوْتٍ مكبوت:

«سَنَرَى مَنْ هُمُ الأذْكياءُ، ومَنْ هُمُ الأغْبياءُ!»

وَخَافَتْ أمُّ البنينَ عَليهِ من أنْ يَقْتَرِفَ حَماقَةً، وَيُعَرِّضَ

نَفسَهُ لغَضَبِ هَؤُلاءِ البَحَّارَةِ الأجْلافِ، فأقْفَلَت النَّافذَةَ، والْتَفَتَتْ إليه:

– ماذا تنْوي أنْ تَفْعَلَ؟

– أيَّ شيءٍ لإيقافِ هؤلاءِ الأنْذالِ عِندَ حدِّهِم!

– مثلَ ماذا؟

– لا أدْري. سَأُفَكِّرُ في شيءٍ.

فَوضَعَت يَدهَا عَلى كَتِفهِ، وَمَسَحَتْ بمنْديلِها الصَّغير المُعَطَّرِ عَينَيه، وقالَتْ مُهَوِّنَةً عَلَيه:

– كلامُهُ سَيَبْقَى في فَمه. فَلا تَغْضَبْ. وَتَذَكَّرْ وَصيَّةَ أبينَا.

ولمْ يَسمعْ زيادٌ ما كانَتْ تَقولُهُ، فَقَدْ كانَ يَحيكُ في خَيالِه خُطَّةً جَهَنَّميَّةً مُضادَّةً لِخُطَّةِ القَراصنَة.

وجاءَتْهُما قَهْقَهَةُ القُرصانِ الأيبيري منْ خلفِ النافذَةِ سعيداً بانْتِصارِه عليهما.

وَفي هَذه اللَّحظة كانَ يُناديه أحدُ رجالِه الضَّفادعِ منَ المَرْكَبِ، وَيْشيرُ إلى الماءِ تَحتَ المَرْكَب، ويُقَبِّلُ أصابعَ يَدِهِ

سَعيداً بعُثورِهِ على العَنْبرِ المَطْلُوب.

وَأعطى الرئيسُ أوامِـرَهُ برفعِ المرسـاةِ، وَدَخَلَ هو غُـرُفَـةَ القيادَةِ، فأشعلَ المحرِّكَ وَتَوجَّهَ نَحوَ زورَقِ ضَفادعِه.

وَبمُجرَّد ما اندفَعَ المَركَبُ إلى الأمامِ، أسْكَتَ المُحرِّكَ فَسَبَحَ المَركبُ صامتًا نحوَ هَدفِهِ حتَّى لا يُزعِجَ العَنبرةَ الرَّاقدَةَ على جُرْفِ البُحيرَةِ، وَصغيرَها الَّذي كانَ يرضَعُ منْ ثدْيَها. ومَن مقدِّمَةِ المركبِ الذي كان يَسيرُ ببْطءٍ شَديدٍ رأى مَنْظَرَ الأُمِّ الهائلةِ وَطِفلَها الرَّضيعَ تَحتَ ماءٍ في صَفاءِ البَلُّور. وَأعْطَى أَمْرَهُ للرَّجُلين بِحَركَةٍ مَنْ رَأْسِهِ، فصوبَّا بُندُقِّيتَيْهِمَا نَحوَ العَنْبَرَةَ الرَّاقدَةِ وَافْرَغا فيها عِدَّةَ أشْواك حاقِنَةٍ بمُخَدِّرٍ قَوِيِّ المَفْعول.

وَأحَسَّت العَنْبَرَةُ بَوَخْزِ الإِبَرِ الحادَّةِ في غَيْبوبَةِ نومِها فتمَلْمَلَتْ قليلاً وَعادَتْ إلى نُعاسِها.

وَأشارَ الرَّئيسُ (سانتياغو) إلى بَحّارَةِ المَركَبِ، فَأدْلَوْا بشَبَكَةٍ كَبيرَةٍ إلى الرّجالِ الضَّفادعِ الّذينَ كَانوا قَد نَزَلوا إلى الماءِ، وَرَكَّبوا أقْنعَتَهُم وَخَراطيمَ التَّنَفُّسِ.

وَنَزَلَتِ الشَّبَكَةُ إلى الماءِ فَفَتَحوها بَيْنَهُمْ، وغَطَسْوا نَحوَ

العَنْبَرِ الرَّضيعِ فَأحاطُوا به منْ كُلِّ جانبٍ وَأطْبَقوا فُوَّهَةَ الشَّبَكَةِ عَليه دون أنْ تَشْعُرَ أُمُّهُ بشَيء.

8

وفي دارِ المَنَارَةِ كانَ زيادٌ قَد أتمَّ حَبْكَ خُطَّتِهِ المُضَادَّةِ، فقَالَ لأُختِهِ:

– ساعديني عَلى النُّزولِ إلى الماءِ منَ الطَّريقِ الخَلْفِيِّ حَتَّى لا يَرانا القَراصنَةُ.

– ماذا سَتَفْعَلُ؟

– لا تَخافي. أنْزِلي الغَطَّاسَةَ إلى الماءِ أوَّلاً، وَعُودي لتساعديني عَلى نُزولِ المُنْحَدَرِ.

فَتَرَدَّدَتْ قليلاً، ثُمَّ قالت:

– سَأفْعَلُ. ولَكنْ بَشَرْطٍ.

– ما هُوَ؟

– أنْ أذْهَبَ مَعَكَ.

وَلَمَّا كانتْ سبَّاحةً ماهرَةً، وغَطَّاسَةً مُمْتازَةً فَقَدْ وافقَ في الحال.

وَدَخَلَتْ هيَ غُرْفَتَهـا فَلَبِسَتْ مَلابِسَ الغَطْسِ، وَخَرَجَتْ فَحَمَلَتِ الغَطّاسَةَ فَوْقَ رَأسِـهـا، وَنَزَلَتْ بينَ الصُّخـورِ إِلى الشّـاطئ، ثُمَّ عـادتْ تَجـرِي، فَـوَجَـدتْ زياداً يَنْتظِرُها عَلى كُرسيِّه، وَفي حِجْرِهِ حَبلٌ طَويلٌ، وقدْ لَبِسَ هُوَ الآخرُ ملابِسَ الغطْسِ، وَتَدلَّتْ منْ حَزامِهِ مِطْرَقَةٌ وعِدَّةُ أوتادٍ غريبةِ الأشْكالِ.

وأمسكتْ بكُرسيِّه منَ الخلفِ وانْحدرتْ به إِلى الشّاطئِ وهَي تَسْحَبُـهُ إِلى الخَلْفِ حَتّى لا يَنْحَـدِرَ بسُرْعَةٍ وَيَسْقُطَ. وأدْخَلَتْهُ إِلى الماءِ، وَسَحَبَتِ الكُرسيَّ من تَحتِه وأخرجَتْهُ إِلى اليابسةِ، وَعادتْ لتساعدَهُ عَلى الدُّخولِ في الغَطّاسَةِ، وإشعالِ محَرِّكِها.

وَفي ظَرفِ ثوانٍ كـانَ زيادٌ يَسْبَحُ تحتَ الماءِ بسُرعَةِ الأسماكِ، وقدْ أمْسكَتْ أختُهُ برجْله.

وَبَعدَ رحلةٍ دامتْ أزيَدَ منْ نصْفِ ساعةٍ نَحوَ الجنوبِ، رَفَعُ زيادُ رَأسَهُ فَرأى الكُرَتينِ الطّافيَتَين على جانبَيِ المَمَرِّ الصَّخْريِّ الضيِّقِ لتَحْذيرِ المَراكبِ. فَغَطَسَ مَرَّةً أخرى، وَقَصَدَهُما.

وَحينَ اسْتَوى مَعَ الحَبل الَّذي يَشُدُّ إحداهُما إلى الأرض، صَعدَ إلى السَّطح وَنظرَ ناحيةَ الشَّمالِ فَظهرَ لهُ مَرْكَبُ القَراصنةِ قادمًا نَحوهُما، وَأزالَ خُرطومَ التَّنَفُّس مِنْ فَمِهِ، وَهَمَسَ لأختهِ بِخُطَّتهِ، فَابْتسَمَتْ خَلْفَ قناعِها الزُّجاجيِّ مُعْجَبَةً بذكائه.

وتَعَاوَنَا على نَقْلِ الكُرتَيْن الصَّفْراويْنِ إلى الجانبِ الصَّخْريِّ الضَّحْلِ القليلِ العُمْقِ، وأبْتَعَدَا بهمَا عَنِ المَمرِّ العميقِ.

وَعادَ زيَادٌ فأشارَ إلى أختهِ أنْ تَتْبَعَهُ، وَتَوَجَّهَ جَنوبًا نحوَ مَدينَة (الدَّاخلةَ) يُساعدُ الغَطَّاسَةَ بيدَيه، وَيَجُرُّ خَلْفَهُ أخْتَهُ تَحتَ الماءِ.

9

كانَ القَراصنَةُ قدْ رَفَعوا العَنْبَرَ الرَّضيعَ إلى المركَب، وأخْفَوْهُ في خزّانِ ماءٍ كبيرٍ جاؤوا به لهذا الغَرَضِ، وَقَعَدَ مَعهُ أحَدُهُمْ يُحاولُ أنْ يُرْضِعَهُ بزُجاجَةٍ، ويُربِّتُ علَى ظَهْرِهِ مُهَدِّئًا رَوعَه.

وَوَقفَ الرَّئيسُ (سانتياغو) يُصَفِّرُ سَعيداً مُبْتَهجاً خَلْفَ عَجَلَةِ القيادةِ، ويتخيَّلُ ماذا سيفعلُ بنَصيبهِ، نَصيبِ الأَسَدِ من ثمنِ العَنْبَرِ.

وَتَراءَتْ لَهُ الكُرَتَانِ الزَّاهيتان منْ بَعيدٍ، فَصَوَّبَ مُقَدِّمَةَ المَرْكَبِ المُسْرِعِ إلى وَسَطِ المَمَرِّ بينَهُما ولمْ يُبْطِئ السَّير.

ومَا كادَ يَتَساوَى مَعَ الكُرَتَينِ حَتّى ارْتَطَمَ المَرْكَبُ ارْتطامًا شَديداً بجُرْفِ المَمَرِّ الصَّخَريِّ، وسَقَطَ القَراصِنَةُ عَلى الأرضِ، واصطَدَمَ هو اصْطداماً عَنيفًا معَ الزجاجِ الأماميِّ لغُرفةِ القيادَةِ فأُصيبَ وَجْهُهُ بجروحٍ عَميقةٍ، وكَسَا الدَّمُ وَجْهَهُ وَصَدْرَهُ، وَسَقَطَ عَلى الأرضِ مَغْشيًّا عَلَيه...

وَتَدَفَّقَ الماءُ إلى دَاخلِ المَركبِ بسُرْعَةٍ. وَخرجَ القُرْصانُ الَّذي كانَ معَ العنبرِ الرَّضيعِ هَاربًا لا يَدري ماذا حَدَثَ، وَتَحرَّكَ العَنبَرُ الصَّغيرُ يَسبحُ حُرًّا داخلَ مِيَاهِ البَحرِ في بَطْنِ المَركَبِ.

10

وَفُوجِئَ رِجالُ المرفإ (بالدّاخلة) بخروجِ (زيادٍ) وأُمِّ البنينَ منْ تَحتِ الماءِ بملابسِهِما الضِّفْدَعيَّةِ وَغَطّاسَتِهِما الغَريبَةِ، واجتمعُوا عَلى حافَّةِ المِيْناءِ لِيَسْتَمِعْوا إِلى قِصَّتِهمَا العَجيبةِ.

وَفي الحالِ قَفَزَتْ جَماعَةٌ منْ خَفَرِ الشَّواطئِ إِلى زَورقِ حراسةٍ مُسلَّحٍ، وَأَخْرَجُوهُما منَ الماءِ إِلى الزَّورقِ، وأَخَذُوهما مَعَهُمْ إِلى حيثُ مَركَبُ القَراصِنةِ.

وَانْزَلَقَ الزَّوْرَقُ السَّريعُ فَوقَ الماءِ الأملس النَّاعمِ فَكادَ يَطيرُ. وَلعبتْ الرِّيحُ بشعر (زيادٍ) وأُمِّ البنينَ، وهُما مَربوطانِ إِلى مَقْعَدَيْهِما بأَحْزِمَةِ الأمانِ، سَعيدين بمُغامَرَتِهِما المُثيرَةِ. وَصاحَ (زيادٌ) في أُذُنِ أختهِ لِتَسْمَعَه:

– يا تُرى ماذا سَيقولُ أبي حينَ يَعودُ منْ سَفَرِهِ؟

– سيَكونُ سَعيداً جداًّ بمُبادَرَتِنَا.

– وَلَكنَّهُ أوصانا بألاَّ نَفعَلَ شيئاً في مثْلِ هَذه الظُّرُوفِ.

ـ أنا مُتَأكّدَةٌ أنَّهُ لنْ يَغضَبَ، فَنحنُ لمْ نُصَبْ بسُوءٍ.

وَحينَ اقْـتَـرَبَ زَورقُ الحـراسَـةِ منَ المَمَـرِّ لاحَ لَهُـمْ مـركـبُ القَراصنَةِ مائلاً عَلى جَنْبهِ الأيْمَنِ فَوقَ صُخورِ الجُرْفِ في وضْعٍ مُرْبِكٍ حَزين.

وَلاحَ لَهُمُ البَـحَّـارةُ، وَهُـمْ يُحـاوِلونَ إنْزَالَ الزَّوْرَقِ إلى الماء ليَلُوذوا بالفرارِ، وَيَتَصايَحون فيـما بَيْنَهُـمْ وَيَتَشاتَمـون كَأنَّهُمْ ثُلَّةٌ منَ الدَّجَاجِ في قَفصٍ يَتَدَحْرَجُ عَلى الأرضِ!

وَاقْتَرَبَ زورقُ الحَراسةِ منهُـمْ، وَصَوَّبَ مِدْفَعَهُ الأمَاميَّ إلى المَرْكَبِ، وصَوَّبَ حَرَسُ الشَّوَاطئِ بَنَادقَهُمْ إلى القَراصِنَةِ، وَتَنَاوَلَ ضَابطُ القيادَةِ بُوقًا وَجَّهَهُ نحْوَهُمْ، وقالَ بصوتٍ آمر:

ـ قفوا وَارفعوا أيْديَكُم!

وَسَمعَ القَراصنَةُ الأمرَ فأخَذوا يُحاوِلُونَ الوقُوفَ عَلى سَطْحِ المَركَبِ المائلِ فَيَتَكَبْكَبونَ نَحوَ الماءِ، ثُمَّ يَزْحَفونَ عَلى أيديهمْ وأرْجُلِهِمْ، ويُحاولونَ الوُقُوفَ، مَرَّةً أُخرى وَيُمْسِكُ بَعْضُهُمْ ببعضٍ، وَهُمْ يَلْعَنونَ حظَّهُمُ العَاثر، والصُّدْفَةَ الّتي جَمَعَتْهُم.

وَلَمْ يَسْتَطِعْ زيادٌ وأُمُّ البنينَ كَتْمَ ضَحكاتِهِمَا فانْطَلَقَا يُقَهْقهان للمَنْظَرِ المُضْحك.

وَتَعَرَّفَ الرَّئيسُ سانتياغو عَلى صَوتَيهِمَا، فَنَظَرَ إليهما باندهاشٍ كَبيرٍ مَنْ فَوقِ مَركَبِه، وكَأنَّه يَقولُ:

– إذنْ أنْتُما صَاحِبا هَذِه المُصيبَةِ!

ونادَتْهُ أمُّ البَنين:

– أما تَزالُ تَعتقِدُ أنَّ العَربَ أغْبياءُ؟

ولَمْ يُجِبْ. كانتْ عيناهُ قد فَقَدَتا البَريقَ الأزرقَ الذي كان يَشِعُّ منهُما وهو يُعطي الأوامرَ لرجالِهِ.

وَسَألَهُمَا قَائدُ الخَافرَة باسماً:

– لماذا تَسألينَه هَذا السُّؤالَ؟

فَرَدَّتْ أمُّ البنين:

– إنَّهُ حسابٌ قَديمٌ بَيْنَنا، يَطُولُ شَرْحُه.

وَسَاعَدهُمُ الخَفَرُ عَلى إنزالِ الزَّورقِ الخفيفِ منَ السَّفينَةِ المَعْطوبَةِ، والصُّعودِ إليهِ واحداً واحداً، وَرَبَطوهُ خَلْفَ الخافرَةِ المُسلَّحَة.

وَبحَثَ الخَفَرُ دَاخلَ المَرْكَب عَن العَنبرِ الرَّضيعِ فَوَجَدُوه داخلَ خَزَّانِ الماءِ تصدُرُ عَنهُ أصواتٌ حَزينةٌ كَبُكاءِ صَبِيٍّ

بَشَرِيٌّ. كانتْ حَركَةُ الزَّورَقِ وَارْتطامُهُ قَدْ أصاباهُ بدَوار.

وَصعِدتْ أمُّ البنينَ هي الأُخرى إلى المركبِ، ونزلتْ بنفسِها إلى خزانِ الماءِ، وأخذَتْ تُربِّتُ عَلى ظَهرِه، وتَمْسَحُ رَأسَه بيدٍ ناعمةٍ، وتَتَحَدَّثُ إليه بأصواتٍ عَنبرِيَّةٍ تَعلَّمتها منَ التَّسْجيلاتِ الّتي كانَ يَحتفِظُ بها والدُهَا للعنابرِ، حَتَّى اطْمَأنَّ الصَّغيرُ وَهَدأ.

وَتَعَاوَنَ جماعةٌ منَ الخَفَرِ الأقوياءِ علَى حَمْله في شبَكَةٍ مَلْفُوفًا بلِحافٍ ناعِمٍ مُبتَلٍّ إلى سطحِ المركبِ، ثُمَّ أدلَوهُ فى الماء برفْقٍ.

وَسَألَ القائد:

– يا تُرى هَلْ يَستَطيعُ العُثورَ عَلى أُمِّهِ؟

فَقالَ زيادٌ بحمَاسٍ:

– نَستطيعُ أنْ نُوصلَهُ إليها. إنَّني أعرِفُ أينَ هيَ الآن. إنَّهُمْ خَدَّروها قُرْبَ ضَفَّةِ البُحيَرةِ.

ولَمْ يَكدْ يُتِمُّ كلامَهُ حَتَّى رأى الجَميعُ رأسَ حوتٍ ضَخمٍ يَرتفعُ فَوقَ سَطْحِ البَحْرِ عَن بُعْدٍ، ويُرسلُ نافورةً من رَذاذ الماءِ والهَواء...

فَصاحتْ أمُّ البنين:

- إِنَّها هي! ها هِيَ قادِمَةٌ لإِنقاذِ طفلِها!

فَنادَى القائدُ جُنْدَه:

اتْرُكوا العَنبَرِ الصَّغيرَ وَعُودوا بسُرْعَة. أُمُّهُ قَادمَةٌ، لا شَكَّ أنَّها غاضِبَةٌ فَلْنَبْتَعِدْ عَنْ طريقها.

وَأماطَ الجُنودُ القُماشَ عَنِ العَنْبَرِ، وَسَحَبوا الشَّبَكَةَ فَانْطَلَقَ يَسْبَحُ نَحوَ أُمِّهِ، وكَأنَّهُ سَمِعَ نداءَها منْ تلكَ المَسافَة.

وكانَ لقاءً جَميلاً بَينَ الأمِّ وَطفْلِها، فَتَمَسَّحَ بها، وتَمسَّحَتْ به، وقَصَدَ ثَدْيَها وأَخَذَ يَرضَعُ بشَهيَّةٍ عَظيمَةٍ.

وَشَعَرَتْ أُمُّه بالسَّعادَةِ لعَودَة صغيرِها. وَزَالَ عَنْها كُلُّ شُعورٍ بالرَّغْبَة في الانْتقام.

وَابْتَعَدَت الخافِرَةُ تَجُرُّ وَراءَها زَورقَ القَراصنةِ مُصَفَّدينَ في الأغْلالِ، ومَرْبوطينَ إلى حَديدِ الزَّورق.

11

حَطَّت الطَّائرَةُ عَلى مَــدْرَجِ مَطارِ (الدَّاخلَة)، ونَزَلَ الدُّكتورُ حَمدي ماءُ العينين فَوَجَدَ في اسْتقْبَالِه ولَدَيْه أُمَّ البَنينَ وزيادًا عَلى بابِ الطَّائرَةِ عَلى غَير العادَة.

وانْدَهَشَ لرُؤْيتهِما فَأسْرَعَ الضابطُ الذي كانا في رُفْقَتِه يَشْرَحُ له:

ـ لا بَأسَ، يا دُكتورُ حَمدي، فَلا تَنْزَعج!

وَنَظَرَ إلى طِفْلَيهِ فَرأىَ بَريقًا سَعيدًا في عُيونِهما، وابتسامات مُضيئَةً على وَجْهَيْهِما، فاطْمَأنَّ قَلبُهُ، وَضَمَّهُما إليه بشوقٍ وَحنانٍ.

وَعَلى مَسافَةٍ قَصيرة كانتْ تَقفُ خَالَتُهُما (يمنة) الَّتي صَحِبَتْهُما إلى المَطارِ لاستقباله،

فَذَهَبَ إليها وَسَلَّمَ عَليها بحَرارةٍ وَمَحَبَّة، وهَنَّأتْهُ هيَ بسلامةِ الوصول.

وَرَكِبَ الجَميعُ السَّيَّارة.

وفي الطَّريقِ حَكَتْ أمُّ البنينَ وزيادٌ لأبيهما قِصتَّهُما مع القَراصنَةِ بالتَّناوُبِ، وَبكثيرٍ منَ المُبالَغَةِ في التَّصْويرِ، فَكانَ يبتسِمُ سَعيداً بنَجاتِهِما، وفَخوراً بشجاعَتِهِما وَذَكائِهِما.

وَباتَ الثَّلاثَةُ عندَ الخالَة (يمنة) التي كانت قد أعدَّتْ للمناسَبةِ مأدُبَةً حافلة.

ونام الصغيران على أصواتِ أبيهما وخالتهما وهما يتناقشان في أمْرٍ مُهِمٍّ في الغُرفةِ المجاورة.

وفي الصباح أعلَنَ الدكتور حمدي للفتاةِ والفتى أنَّهُ قَرَّرَ الزواجَ بخالتهما «يمنة» وأنَّها سَتَعيشُ مَعَهُمْ في دار المَنارَة.

وصاحَ الاثنانِ في سَعَادةٍ عَظيمةٍ، وَحَاولتْ أمُّ البنينَ أنْ تُزَغْرِدَ، وَارْتَمَتْ عَلى خالَتِها فَعانَقَتْها.

وَانْحَنى الأبُ فَرَفَعَ زياداً منْ مَكانه، وَضَمَّهُ إليه بَيْنَما أمُّ البَنينَ تَتَعَلَّقُ بهِمَا وَيمْنَةُ تَبْتَسمُ في حِشْمَةٍ وَوقارٍ غَيرَ قَادرَةٍ عَلى إخفاءِ سَعادَتِها.


obeikan
Printing & Packaging

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي ، الحاصل على جائزة « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » .

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس ، وخياله الخصب ، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى ، ومن عالم إلى آخر ، يقرب [illegible] الماضي البعيد ، ويلقي الأضواء على عوالـ[illegible] بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضـ[illegible] فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية ا[illegible] الحديثة للشباب في العالم العربي .





